وما أدراك ما الملمَّات (*)

حين نلقي بأسماعنا إلى دعوة الإيمان، ترتفع بها أصوات حداة القافلة بالعودة الصادقة الجادة إلى الإسلام لابد أن نفرق بين حالين:

الحال الأولى - يوم كان الإسلام منيع الحمى بأبنائه، قوي الشكيمة بدفاعهم عن حوزته وجهادهم في سبيله.

الحال الثانية - يوم أصبح الكثير من أبناء الإسلام العبء الثقيل عليه، فبدل أن يدفعوا القافلة صعوداً، باتوا وهم بأمس الحاجة إليه ليوقظهم من سبات، ويخرج بهم من حمأة الذل الذي يعانون، والضعف الذي في حمأته يتمرغون.

والأمة التي ينتاب خطها البياني منعطفات تثخنها بالجراح: تلتفت إلى ماضيها لتتصل من أسبابه بالقوة وسلامة المنطلقات، فترى بعين البصيرة طريقها، وترسم بحذر بالغ مواقع أقدامها، مستعينة بالله الذي ينصر من ينصره، ويهب عنايته لأولئك الذين صدقوه العهد، ولم يصرفهم عن الاستقامة صارف، ولا قعد بهم عن الجهاد بشارة ولا نذارة.

وبين هذا وذاك لابد أن تفيد من واقعها الذي أثخنته الملمات والمصائب، مدركة أي عالم تعيش فيه، وأي مفهومات - وراء هذه الظواهر - تسيطر على مقومات حقيقية ينبغي أن تكون عليها الأمة لتستنقذ حقها السليب،

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الثالث والرابع، السنة الثانية عشرة، جمادى الأولى والثانية، ١٣٩١هـ. تموز وآب ١٩٧١م.

وكرامتها المضاعة بين أمم الأرض التي تداعت عليها كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. وصدق رسول الله المبلغ عن ربه ما أراد ومنه تنبيهه على هذا الحاصل اليوم، وصلاة الله وسلامه عليه ما تمخض الزمن عن كل دليل ساطع على صدق رسالته ودعوته.

الملمات.. وما أدراك ما الملمات.. إنها ـ يوم يجد الجد وتحزم الأمة أمرها مستعليةً على حب الدنيا وكراهية الموت ـ نداءُ الحادي إلى الطريق الذي لا طريق سواه، طريق الجادة التي تصل القرن الرابع عشر للهجرة بعصر غار ثور وحراء، وتقفز بالأمة من ساح الخذلان والهزيمة.. إلى أرض بدر والقادسية، واليرموك وحطين وعين جالوت..

أجل.. إنها الموقظ الأمثل من السبات العميق الذي تغط فيه الأمة وقد أفلت من يدها الزمام، وأضحى الذين أناخ عليهم الذل بكلكله بالأمس يهددونها في عقر دارها اليوم، ويذيقونها الصاب والعلقم صباح مساء.

ولم يعد ضرباً من عميق الفلسفة: أنه على كثرة الدواهي التي زمجرت في تاريخ هذه الأمة، والنكبات التي اعترضت سبيلها عبر القرون، لا نكاد نجد حقبة من حقب هذا التاريخ كانت أثقل ولا أحفل بالدروس والعبر، ثم الدلائل القاطعة بصدق ما جاء به القرآن الكريم من وضوح الحواجز الفاصلة بين الإسلام والكفر والنفاق: كهذا الذي نراه اليوم في هذه الحقبة التي يصدق فيها قول النبي ـ صلى الله وسلم عليه ـ: [**تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي، ثم تجيء الأخرى فيقول: هذه هذه..**]، فكأن كل واحدة

تنسي التي سبقتها لشدة الهول الذي تحمله، والظلام الذي تسوقه في وجه الصادقين المصلحين.

وليس من الكلام المكرور التذكير بما نراه من واقعنا في أرض النبوات، حيث يتسربل المسجد الأقصى وما حوله بواقع المذلة تحت سلطان يهود، وحيث يتخذ أعداؤنا من قضايانا ـ على اختلاف الألوان والبراقع والشعارات ـ دُمى يتلهون بها في نواديهم الدولية والعالمية، ووسائل إيضاح تنعكس عليها خلائقهم بما تحمل من أحقاد وأضغان يغذيها تاريخ طويل ومصالح متبادلة مع يهود، ترتبط ارتباطاً عضوياً بالسياسة والاقتصاد، والموقفِ الموحد تجاه أمتنا في منطلقاتها ومفهوماتها ومثلها التي تضمن لها ـ أن لو حكمت ـ القوة والاستمرار مع الإسهام الصالح الخيِّر في البناء الحضاري المثمر الذي يحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله عز وجل، ويحفظ كرامته حفظاً يتسق مع رسالته التي خلق لأدائها، وسخر له الكون بأجمعه من أجل تحقيقها على هذه الأرض.

وفي سبيل أغراض العدو المهينة، ترى من تلك الأحلاف الدنسة بين يهود وأعوانها في العالم اقتحاماً لكل الحدود، واستهانة بمختلف القيم، وتحدياً لكل قانون خلقي، أو شرعة إنسانية؛ ليكون لهم من وراء ذلك تثبيت أقدام المعتدين الغاصبين، وإضفاء الصبغة الشرعية على ملكية اللص، وجريمة القاتل، وخيانة الآثم البغيض. والمعاذ الله من أن نكون ـ بغفلتنا وتفرق كلمتنا ـ في عداد من يمكنهم من ذلك، ويساعد على إخراج تلك المسرحيات العالمية بأشكالها التي لم تعد خافية على ذي عينين.

وليس من الكلام المكرور في نظرنا أيضاً: التذكير بما أحدثوه واختلقوا أسبابه لما يسمى اليوم بمشكلة باكستان الشرقية واللاجئين والحدود... حيث الخطر المحدق، والحرب السافرة، والمثيرات التي تنذر بالشر المستطير؛ فهم يختلقون بواعث المشكلة، ويسهمون في تعقيدها، ويخترعون لها كل مقومات الأذى والفتنة - والدماء التي تلطخ أيديهم لم تجف - ثم ينوحون - بقحة عجيبة - بأصوات المصلحين، ويندبون بألسنة المشفقين المتحرقين على المشردين والمعذبين، فلا ليلهم ليل، ولا نهارهم نهار، جنوبهم من صدق العاطفة تتجافى عن المضاجع.. وبينهم وبين الراحة عداء لا ينتهي.. كل ذلك - على زعمهم - من أجل الحرية المغتصبة والحقوق المضاعة، والحرمات التي ينتهكها من بيدهم السلطان. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾. وما أحسن أن نذكر في مثل تلك الملمات، ونداء الواجب للجهاد حي في أعماق المسلم قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وإذا كان الإطار الذي يلف مشكلاتنا ينتمي إلى مخطط واحد، يمكن القول: بأنه على تعدد الأسباب الجوهرية التي دعت إلى خلق مشكلة باكستان الشرقية عند الأعداء - وقلب الحقائق في هذا المجال أوضح من الواضحات - إن موقف باكستان من قضية فلسطين في مجلس الأمن، وما وراء مجلس الأمن: من الأسباب الرئيسة التي دعت إلى إقلاقها والضرب على الشعب المسلم فيها بالأسداد؛ كيما تشغله أحداثه الداخلية عن كل

التفاتة إلى واجبه الحتمي ضد عدوان يهود على المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وأسري بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه، وكان منه عروجه إلى السماء، حيث شرعت الصلاة، ووصل إلى سدرة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، وكانت المواساة الرائعة الكبيرة بعد عام الحزن، وشاء الله جلت حكمته أن تكون معجزة الإسراء والمعراج تثبيتاً جديداً للفؤاد الكبير، ومداً جديداً من الطمأنينة الراسخة بين يدي الهجرة إلى المدينة المنورة التي بدأ يتحرك على أرضها المجتمع المسلم بكل مقوماته الخيِّرة، وكان خير مثل إنساني لمجتمع برهن ـ وبشكل قاطع ـ على أن مبادئ الإسلام ليست مُثُلاً متعذرة التطبيق، ولكنها مبادئ حيَّة تتسم ـ وهي من عند الله ـ بكل خصائص الواقعية والتوازن والحياة وقابلية الشمول والاستمرار، مما يذكر ببعض من مدلولات قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾.

وإذا كان هذا واقع الأمة، وما ذكرناه كائن على سبيل المثال لا الحصر؛ إن صدق التململ تحت ضربات الزمن، يدعو إلى تلك العودة الصادقة الجادة التي ألمحنا إليها من قبل، ـ وتباشيرها تلتمع في الأفق والحمد لله ـ والتي ما فتئ المصلحون يدعون إليها مذكرين بأنها دعوة القرآن، ومنهج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومنهج صحابته، وكل من اتبعهم بإحسان عليهم الرحمة والرضوان أجمعين.

العودة إلى الدين الذي أعز الأمة بعد ذل، ومنحها القوة بعد ضعف، ومنَّ عليها بتأليف القلوب بعد فرقة وشتات، وكشف عن مواهبها

وطاقاتها، ووجهها إلى حيث تستخدم العقل وتنير القلب، وتستبدل به الخرافة والتقليد الأعمى والتعاظم بالآباء والأجداد، تلك الأمور التي نهشت وجودها وهدت كيانها في الجاهلية والمعاذ الله!.

وهذه العودة لابد لها من المنهج المستقيم القائم على دراسة الإسلام، في منابعه الأصيلة العذبة الصافية، ومعرفة الواقع، والتسلح بسلاح العصر علماً ومعرفة، والاستعانة بوسائل التربية وعلم النفس وكل ما من شأنه أن يعاون في إعداد المسلم بقلبه وعقله وتزكية نفسه إعداداً صادقاً يؤهله لحمل الرسالة من جديد، حيث يكون من بعض آثار ذلك الانتصار على النفوس والانتصار على الأعداء، والاستعلاء على كل ما يجعل الإنسان يخلد إلى الأرض ويلتصق بالتراب؛ حتى لا يكون مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، وحتى يتبوأ أبناء الأمة من جديد مكانهم الطبيعي القيادي في ظل ما انتهجه أولئك الذين قال الله فيهم يوم حملوا العبء وأدوا الأمانة، وقادوا الصفوف إلى الموت بأغلى ما يملكون، يوم بذلوا نفوسهم وأموالهم ثمناً للعقيدة: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾.

وهذا الذي ندعو إليه ونلح دائماً على تذكير أنفسنا والآخرين به، ليس ابتداعاً أبتدعه من عند نفسي ولكنه ـ كما أسلفت ـ طريق القافلة الأولى وطريق كل من هانت عليه الدنيا في سبيل الآخرة، وكان رضا الله مطلبه في كل ما يأخذ وكل ما يدع. والمنصفون المنصفون... يرون آثاره في الماضي

والحاضر. . ولكن المنهزمين في قرارة أنفسهم يسوِّل لهم الضعف والاستكانة إلى حب العافية غير هذا. . ويزين لهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء طريقاً غير هذه الطريق.

ومنذا الذي آتاه الله مسكة من ثقافة الإسلام في عقله وقلبه، لا يدرك أن الله بحكمته وفضله، يوم ابتعث نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة الهدى ودين الحق، كان مما أبانه في كتابه وسيرة نبيه ـ مع الأسس التي أراد أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي في عقيدته وشريعته وسلوكه ليكون مثالاً يحتذى في العالمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ أن كشف عن تلك الخصائص التي يجب أن تقوم عليها الجماعة التي يناط بها حمل العبء والعمل بتلك الرسالة، وأن نكون النموذج الحركي الواقعي لذلك المجتمع الذي تزينه شرعة الإسلام.

وإنك واجد في القرآن وفي السيرة، العديد العديد من الدلائل الواضحة وضوح الشمس في عليائها وضيائها، وخذ مثلاً على ذلك ـ وما أكثر الأمثلة ـ سورة الحجرات التي عرضت لكثير من خصائص هذا العالم الأمثل الذي يريده الإسلام وعملت على تقصي الآداب التي يجب أن تتسم بها الجماعة المسلمة، حتى رأينا الدعوة إلى حسن الأدب مع الله ورسوله، فلا يستبق المسلم برأي أو فكرة بين يدي الله ورسوله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ وأكثر من هذا جاء النهي الصريح الذي خوطب به كبار الصحابة؛ من أمثال أبي بكر وعمر

وعثمان وعلي وغيرهم . . جاء النهي عن رفع الصوت فوق صوت النبي - عليه الصلاة والسلام - والتهديد بحبوط العمل وهلاكه إن حصل ذلك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ . ويجيء الثناء على أولئك الذين استجابوا أيما استجابة لهذا الأدب الإلهي ؛ من أمثال عمر وثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنهما - فيقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ .

ولما كان المقام لا يسمح باستقصاء ما في السورة من أحكام وآداب تتعلق بهذا الذي ندعو إليه من إعداد الفرد المسلم والجماعة المسلمة على أساس من آداب القرآن والسيرة فإن لنا عودة قادمة إليها إن شاء الله .

وإنها ليقظة واعية كريمة أن تولي هذه الأمة وجهها شطر نبعها الأصيل من جديد ، وتتخذ من الملمات والكوارث خطوة جادة على الطريق ، فالأحداث التي تغالبنا في هذا العصر لم تعد تقبل المهلة والانتظار ، والمخاطر ترمي بالشرر من كل جانب وعين الخصيم ساهرة ، وإجرامه طبع ومخططات وتنظيم ، والله المستعان .

وطبيعة المعركة تفرض أن تكون هذه اليقظة المطلب العاجل للأمة على اختلاف معرفة أبنائها واختصاصاتهم ، ومواقعهم في المجتمع الذي يعيشون فيه ، وتنوع أعمالهم ومهماتهم ، والثغر الذي يقف عنده كل واحد

منهم . . . تلك اليقظة التي تجعل منهم أناساً جديرين أن يكونوا وراثاً حقيقيين لأولئك الأمناء على دعوة الإسلام، والذين سقوا أرضها من دمائهم، وفكرها من جهدهم ونصبهم وسهرهم ومشاركتهم العالمية في السير الحضاري . . الأمر الذي يستتبع الخروج من دوامة الاكتفاء بتلقي الضربات من العدو، وترقب مؤامرته في الكهوف ووراء الكواليس، والنهوض إلى القضاء على الواقع المرير في ظل الاحتلال والاغتصاب والعدوان على الأرض والفكر والتربية والإعداد.

ولئن كان الأمر كذلك بالنسبة إلى مجموع الأمة وأن كل واحد من أبنائها على ثغر من ثغور الإسلام فلا يؤتينَّ من قبله: إن على الطلائع التي أولاها الله شرف الريادة أن تقدم المُثُل الصالحة لهذا الذي كان طريق القافلة الأولى، فتكون أكثر يقظة ووعياً لثقافة العقل والقلب، فتجمع إلى الثقافة الحقيقية التي تنمي الملكة القادرة على العطاء: نباهةَ الفكر، والتفتح على ما يجري حولها، وتعنى عناية خاصة بثقافة القلب وتزكية النفس عملاً بقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾. وبغير تزكية النفس وإخلاص النية لا يمكن أن تتهيأ القدرة على تحمل مشقات الطريق، والاستعلاء على المعوقات من ترغيب وترهيب. وذلك ما نجده لأول وهلة في التربية القرآنية للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فقد بدأ الوحي بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. ولم يمض على ذلك اليسير حتى نزل

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾. وظهرت ثمرات ذلك في كل من اتبع هذه الطريق بإحسان، مما يفيض به تاريخنا والحمد لله. وأمامنا القريب القريب من الأمثلة التي تصل الأرض بحبل السماء والتي رأينا منها رجلاً يعيش في ظلال القرآن بقلبه وعقله وقلمه، يصدق الله تعالى، فيجمع الله له مداد العلماء إلى دم الشهداء، حين نراه يكتب في بيان آي الكتاب ملهَماً متفتح البصيرة وهو يرى حبل المشنقة يتحرك أمامه غير آبه بكل ما يلصق بالتراب من حب الحياة والعافية، والبعد عن كل ما يعوق الصعودَ وبلوغ المرتقى الصعب. وما أكثر ما يذكر المرء أمام هذه النماذج قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

ألا أن الإسلام يرقب أولئك البررة الأمناء الذين ينسون أنفسهم ويذكرون الله، ويؤثرون ما عنده من منازل الكرامة على ما عند الأغنياء من حظوظ الدنيا في المال والمتاع، وما عند ذوي السلطان من المنافع العاجلة والرتب والألقاب؛ أولئك الذين أسلموا وجوههم لله فتجردوا من الرغبة التي تُذل الرقاب، ومن الرهبة التي تحجز عن كلمة الحق، فإذا قالوا: كان قولهم: قال الله ورسوله، وإذا قال الله ورسوله بطل قول كل قائل. . أولئك الذين اعتزوا بالله؛ فأعزهم وزين الإيمان في قلوبهم؛ فأيقنوا بما عنده، حتى ألقوا عصا التسيار في ساحة الطمأنينة الصادقة إلى قوله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

مهما ابتغينا العزَّ بغير ما أعزنا الله!!

الحجيج.. وأكفُّ الضراعة (*)

الحديث الباكي عن مآسي أمتنا في هذه الحقبة من الزمن؛ حديث يذيب القلب، ويذهب النفس حسرات. وما ينبغي لنا ـ ونحن أمة الإيمان والجهاد ـ أن يكون صدى المأساة في أنفسنا نواحاً نصرخ به، وحزناً يسيل دموعاً على أرض المذلة والهوان، ويعمي عن العمل، ولكن من شأن هذه الأمة ـ وقد حباها الله ما حباها من خصائص القوة ومنابع الخير ـ أن يكون صدى المأساة في نفوس أبنائها، حقائق ترسخ، ووثبة جديدة للعمل المثمر البناء، ويقظة واعية نتجاوز بها الخطأ إلى الصواب، والمعوج من الطريق إلى واضح المعالم المستقيم.

ولعل من أبسط هذه الحقائق: معرفة العدو من الصديق للغافلين، وتعميق ذلك للواعين النابهين؛ وذلك كائن حين تسقط البراقع الخادعة، ويظهر زيف التحالفات، وتتمرغ العناوين بأدناس الوحشية والتعطش إلى الدماء، وتبدو حروف السلام شعاراً تافهاً حقيراً، لما تخفيه وراءها من رغبة في التوسع على حساب الآخرين، والانقضاض على كل ما هو خلق كريم، وإنسانية صادقة نبيلة، والقضاء على كل ما يمت إلى الإسلام وحضارة الإسلام بصلة، ولو أن هذه الحضارة أنقذت عشرات بل مئات الملايين في العالم من أوحال الظلم وعبودية الإنسان للإنسان؛ يعرف ذلك الذين عاشوا

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخامس والسادس، السنة الثانية عشرة، رجب وشعبان ١٣٩١هـ، أيلول وتشرين الأول ١٩٧١م.

في ظل الطبقية التي كان منها في الهند طبقة الأنجاس، والتي أخذ بيدها الإسلام إلى مستوى الكرامة، وحرية الفرد، وحقه اللازم في الحياة الأفضل، تحقيقاً لقوله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ واستمراراً لكلمة الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». وآثار ذلك مشهورة في كل قطر من أقطار الدنيا رفرفت على رباه راية التوحيد، وكانت محور حياته حضارة الإسلام.

وحقيقة أخرى ليست أقل من سابقتها في ميزان التصور الصحيح، والإفادة من الأحداث وتحركات الأعداء هنا وهناك: أن قدر هذه الأمة مرتبط بعقيدتها ومثلها إيجاباً وسلباً، وأنها لو خرجت من جلدها لاسترضاء الآخرين: فليس ذلك بنافعها شيئاً عندهم، ومن الجهالة بمكان والغفلة التي لا تدانيها غفلة أن يظل نفر غير قليل من أبنائها على اغترارهم ووهمهم بأنَّ تحولها عن مشرق الهداية الأول قد يعطيها بعض المكاسب، دون أن تجرؤ على إقناع نفسها أن الثعلب عندما يلبس جلد الحمل لا يتحول إلى حمل، والمجرم بالطبع ـ الملطخة يداه بالدماء ـ مهما لبس من مسوح العباد والرهبان لن يغير ذلك من حقيقته شيئاً؛ لذا فمهما تطاولت الأعناق تطلب العز لهذه الأمة بغير ما أعزها الله أذلها الله. وتلك ثانية من كلمات عمر رضوان الله عليه يوم قالها لأبي عبيدة على مشارف الشام ـ وجيوش الإسلام قد حلت

في تلك الديار بعقيدتها وحضارتها ـ: «كنا أذل أمة فأعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله».

وقد يكون من ثمرات هذه الحقيقة أن تنفض الأمة عن كاهلها غبار التناقضات، والانحناء المنافق في وهم ليس أبعد منه السراب الخادع، واستسمان ذي ورم؛ مما يذكرنا بقول أبي الطيب:

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

والشحم هنا ليس شحم الأجساد، ولكنه شحم الوعود، وخداع القول، وكذب العهود والعقود.

فالصراع كائن بين الحق والباطل لا محالة، ورحى الحرب دائرة بين الكفر والإيمان، ومن وجوه هذا الصراع ما نراه وراء الأحداث من محاولات الانقضاض على الحضارة الإسلامية من قبل الحرب العالمية الأولى وحتى يوم الناس هذا، وأسلحة ذلك تأخذ لوناً في آسيا، ولوناً في أفريقية، وآخر في شبه القارة الهندية وغيرها، وإن كانت الجسور العالمية ممتدة والأسلاك الآثمة لا تنقطع.

وأنت واجد أنه ـ حتى باسم التحرر وخروج المستعمر ـ يوضع لنا السم في الدسم! . لم تخرج بريطانيا من أرض من أرضنا إلا وضعت فيها قنبلة زمنية موقوتة، وخلفت جرحاً دامياً يتقيح على مدى الأيام، وينذر بالانفجار، أو ينفجر.

وهذا الذي فعلته الدولة العجوز الفاجرة رأيناه في فلسطين، ورأيناه يوم إنشاء دولة باكستان، وأبصرناه من قريب في أمر الجزر الثلاث، والذي وراء الستار أدهى وأمر. ولقد تفجر ذلك كله في جسم هذه الأمة المنكوبة التي أعرضت عن كلمة الله، وعزم الكثير من أبنائها أن لا يستضيئوا بنوره، وشرعت تمد كفها الحزينة إلى فتات موائد الآخرين، علماً بأن النور الموهوم الذي يضيء طريقها من عندهم، إنما هو بريق السلاح الذي وجه إلى صدرها منذ حين وما يزال.

ولو أن هذه الأمة ـ وكل حياتها اليوم نذر تصرخ بشراسة وإيعاد ـ ولت وجهها شطر قرآنها، وسيرة نبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وسلفها الصالح ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ، لرأت ما لا يكاد يحصى من الأدلة على أن ما هي فيه ليل بهيم طال أمده، وفجره الصادق أن تعكف على هذا الكتاب الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تستنطقه عن دائها ودوائها... ولسوف ترى أن من أوضح ما قرره هذا الكتاب، دون لبس ولا إبهام، في صفاء لا يداخله ريب المتشككين ولا تعقيد المتفلسفين، وكان أمراً لا يلتفت عنه إلا من ران الضلال على قلبه، وأعشت الغفلة بصره وبصيرته.

نعم لسوف ترى الكثير من الآي تقرر ـ بجانب الدعوة إلى العلم، والإعداد، ووحدة الكلمة على أساس من العقيدة الصحيحة ـ مدلول قول الله ـ جل وعلا ـ في معرض الحديث عن يهود:

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

فعلى كثرة الأقوال في المراد من الخير هنا، نجد المحققين يجنحون ـ ومعهم الدليل ـ إلى أن «من» في الآية أفادت تمام الاستغراق، وكلمة «خير» جاءت نكرة في سياق النفي فدلت على العموم، وهكذا كان الاستغراق مع العموم، فدلت هذه الكلمات الفاصلة على أن أيَّ نوع من أنواع الخير: غيرُ مرغوب فيه لهذه الأمة؛ قلَّ هذا الخير أو كثر، جلَّ أو حقر، مهما كان لونه، ومهما كانت ماهيته وحقيقته، في أي مجال من المجالات، وفي أي ميدان من الميادين، وإن حصل شيء منه فلمصلحة تعود عليهم هم أولاً وبالذات. فهم لا يريدون أي خير لأهل الإيمان والتوحيد، ولا يبغون لهذه الأمة إلا السوء، ولا يرقبون فيها إلاً ولا ذمة.

ولعمري إن إدراك هذه الحقائق إدراكاً يخرج بأصحابه إلى ميدان العمل والتنفيذ، وتجاوز التناقضات والتجارب المخفقة في هذا الوقت بالذات، أمر له آثاره المنتجة الطيبة فيما نتصور ونقدر إن شاء الله؛ ذلك لأن الأدلة الناطقة جديرة أن توقظ الغافل، وأن تبعث الحياة فيمن يريد الحياة.

فهذه دماء مآسينا لا تكاد تجف هنا وهناك، وما أكثر ما تلد الأيام من كوارث نحن ضحاياها، وما أكثر ما تشعل من نيران نحن وقودها. فحيثما أجلت الطرف في وطننا الكبير: جرحت عينيك وقلبك الأشلاء والدماء وفقدان الأرض والفكر والكيان، فلم يكفنا ما نحن فيه من كارثة فلسطين

وعقابيلها، حتى كان ما خشينا منذ زمن أن يكون، مما حل بالأمة في أعقاب الحرب الظالمة في شبه القارة الهندية، والتي بدأ فيها تمالؤ الكفر على الإسلام علانية ومن وراء ستار، ولكنه مهما اتخذ من العناوين، فهو واضح لكل إنسان يبتغي الحقيقة بتجرد، ويتخلى عن رواس ومؤثرات معينة، كثيراً ما تطغى على موضوعية البحث، وتنأى بالحكم عن أن يكون بجانب العدالة والصواب، وإن كان قد ساعد على ذلك ـ ولو بشكل ثانوي ـ ظروف وأسباب يجدر بالغيور على هذه الأمة أن لا يتناساها، حرصاً على أن لا يكون منهجنا دائماً إلقاء التبعة على الآخرين دون تذكر لما يكون من أخطائنا، وخصوصاً فيما يتعلق بذاتية الأمة وإعدادها الإعداد الملائم في ظل الإسلام الذي لا يهمل جانباً من جوانب الخير، ويحرص على بناء الكيان القوي في مواجهة الأخطار والمفاجآت.

وإن تعجب: فعجب أن يتجاوز الأمر حدود قلة الحياء، فيصبح ما هو محظور علينا، لأنه يتعارض مع حقوق الإنسان!! ويهز الضمير العالمي! مباح كل الإباحة لدولة أخرى هم راضون عن انسياحها وتوسعها، ولهم ـ بجانب هدم كيان أمتنا ـ مصلحة من المصالح في الذي يحدث. وأمثلة ذلك كثيرة فيما يسمى بمشكلات اللاجئين، والعدوان، والاغتصاب، وتقرير المصير، وحيازة مكاسب من طريق العدوان العسكري وما إلى ذلك.

وعلى أية حال؛ فلسنا الآن بسبيل تحليل الحوادث ودراستها من وجهة نظر المؤرخ، ولكننا ـ في نهاية الشوط ـ بسبيل أن نذكِّر بما لا ينبغي تجاهله، أنهما أمران اثنان تنطق بهما بدهيات هذه الدعوة المباركة:

أولهما: تجديد الصلة بالله عز وجل، والإنابة إليه، والوقوف ببابه وقفة الصادقين المُخبتين، نلجأ إليه حيث لا ملجأ إلا هو، ندعوه بقلوب أشرق فيها إيمانها، وأحست بمرارة البعد عن الله، ولفحها لهيب الشوق إلى مرضاته بعد هذه الجفوة الطويلة القاسية التي أعقبت النفاق عند الكثيرين، والهلع عند الكثيرين؛ فليس لها من دون الله كاشفة، والمعصوم من عصمه الله.

ولقد كان التوجيه القرآني إلى ذلك من دعائم البناء النفسي لهذه الأمة؛ ففي معرض الإفادة من حوادث الماضين، والاعتبار بما كان فيهم وكيف أن الله تخلى عنهم عندما تخلوا هم عن الله، فلم يتضرعوا إليه، ولم يقفوا ببابه خاشعين خاضعين يلتمسون منه الفوز والنصر عندما أصابتهم النكبة ونالهم البأس. في معرض ذلك قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

أرأيت؟ ولكن قست قلوبهم.. وزين لهم الشيطان ما كانوا يعلمون. قسوة القلب، وتزيين الشيطان.. مرضان خبيثان حلاَّ محل الضرع والإنابة، والتماس الخير والفرج من خالق الكون ومُدبِّر السماوات والأرض.

بل إن عدم التضرع يبدو وكأنه ثمرة من ثمار قسوة القلوب، وما يزينه الشيطان من العمل المنحرف والبعد عن الله.

ولقد رأينا نبينا ـ عليه الصلاة والسلام، وهو الأسوة الحسنة الصادقة ـ يقوم بما وجهت إليه الآية الكريمة في الرخاء والشدة، فلا الرخاء ينسيه الخالق

المنعم، ولا الشدة تبعده عن مولاه عز وجل مفرج الكروب وناصر عباده المؤمنين، ولنذكر في ذلك موقفه في أعقاب رحلته إلى الطائف، وتضرعه يوم بدر وغيرها، والأمثلة كثيرة وفيرة.

خذ هذا المقياس، واعرض عليه أعمالنا وما نحن فيه. نسلك أسباب الضعف، ونغضب الله ورسوله، ونتخذ هذا القرآن مهجوراً، ونضيف إلى ذلك البكاء والنواح على ما أصابنا. ولو أنا توجهنا شطر خالق القوى والقدر، الواحد القهار، مذل أعناق الجبابرة، الذي نصر المسلمين على أهل الكفر والطغاة والظالمين، والمسلمون في قلة عَدد وعدة، وضعف في كل أسباب النصر المادية الظاهرة. ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾. ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾. لو أنا توجهنا إليه بصدق لأصبح الحال غير الحال، ولتغير وجه القضية، وانقلب ميزان القوى رأساً على عقب.

ثانيهما: سلوك سبل الإعداد والاستعداد جهد المستطاع بعيداً عن الأنانية والمصالح القريبة، وما يكون من الأطماع التي تقعد بأصحابها عن المرتقى الصعب، وتحول دونهم ودون أن يتقدموا إلى الأمة بما يأخذ بأيديها إلى مرابع النصر والتأييد. نفيد من العلم ونأخذ من الحضارة مالا يعدو على كياننا وفكرنا في ظل قول الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...**﴾.

ومهما طالت الطريق، وكان مفتاح السلاح اليوم بيد أعدائنا؛ فإن الله قادر - إذا وضعنا القدم بثبات على هذه الطريق مراقبين الله تعالى، مبتغين مرضاته، غير عابئين بما قد يعود ذلك على البعض بخسارة مال أو منصب وجاه - أن يأخذ الله بأيدينا ويكون النصر لنا بإذن الله.. وهي ثمرة قد لا يكتب لنا أن نقطفها نحن، ولكن المهم أن نسلك السبيل بإخلاص، وألاّ نبخل بجهد نستطيعه أو طاقات يمكن أن نقدمها متجاوزين كل العنعنات والاعتبارات الفارغة التي لم تنتج إلا الركام والعوائق. وقوافل الشر تسابقنا يوماً بعد يوم، والأعداء يظاهرون علينا في كل ساعة، ودولاب الزمن لا ينتظر.

وفي هذه الأيام التي يلتقي فيها مئات الألوف من المسلمين في ظل بيت الله لأداء مناسك الحج، يؤمل أن يكونوا جادين في ملاحظة هذين الأمرين. لعل ذلك يكون فاتحة خير للأمة جمعاء؛ فالخشوع الصادق في ظل الكعبة، والتلبية المؤمنة مع إدراك مدلولاتها وأبعادها، والدعاء الضارع بين الركن والمقام من خلال الدموع والأشلاء ومن خلال الدماء والمآسي، وكوارثنا في فلسطين وباكستان.. وغيرهما.. وغيرهما.. من خلال ذل تعانيه الأمة، وقهر ترزح تحت سلطانه، وعيش خانع يهدد اليهود فيه حياتنا، وأعراضنا ومستقبل أجيالنا في ديننا ولغتنا وفكرنا ووجودنا، بله الأرض والتراب.. من خلال ذلك كله.. يدعونه.. يضعون في بابه أثقالهم وأثقال أمتهم. فالدمعة هناك لها ما لها في ميزان الله، والحرقة الصادقة على الأمة تعطي ما تعطي عند الله.. ولوعة القلب بين يدي صاحب هذه البنيَّة التي أخضعت أعناق الجبابرة لابد أن تعمل عملها في

خاتمة المطاف. ولقد يكون ذلك كله دليلاً على أن الحجيج مدرك لما يفعل، واع للشعائر التي يقوم بها، والمناسك التي يؤديها، محسن للتصور في أن وراء فريضة الحج مطالب ومطالب، وأن الأمر ليس إسقاط هذا الركن عن كاهله فحسب.. ولكن وراء ذلك كيان الأمة وقضاياها ومصيرها.

وعلى الطريق المؤدية لذلك.. لابد أن يعقد هؤلاء المؤمنون العزم، ويجددوا العهد على النصرة وملء الفراغ، أن يبايعوا نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جديد، من أجل الإعداد الصادق، وعمل ما يمكن عمله، وبذل كل ما يمكن بذله، بعيداً عن المؤثرات والصوارف والعوائق، خصوصاً ما يكون عند أولئك الذين ولاهم الله أمر هذه الأمة فكانوا أمناء على مقدراتها وثرواتها البشرية والمالية والفكرية وما إلى ذلك.

نقول هذا، ونحن على ذكر من الأعذار التي قد يؤخذ بعضها بعين الاعتبار، ولكن الأمة مدعوة اليوم إلى أن تأخذ بأسباب الأرض بكل ما تستطيع، وأن ترتبط بصدق وإخلاص بأسباب السماء.

فإذا صدقت العزائم، وتجاوزنا حدود الوثنيات، وحصل اللجأ الصادق إلى الله، بعد استنفاد الطاقة من الإعداد والاستعداد؛ فإن عدالة الله تأبى أن تتخلى عن المؤمنين في ساعة العسرة، ولقد أكرمنا الله بوعده بالنصر إن نحن نصرناه، والله لا يخلف الميعاد.

إن القضية تبدأ من هنا.. ومفتاح الحل على المدى البعيد بأيدينا، ولكن لابد من أن نتقدم بالعطاء ليكون لنا العطاء.. ولابد من أن نصدق العزيمة

والبذل ليتحقق لنا كل ما وعدنا به ربنا الرحيم الرحمن . . أسوة بما فعل نبينا المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ . . إذ كيف يهنأ قلبٌ اليوم، وعرى الإسلام تنقض عروة فعروة، وأشلاء الأمة تملأ السهول والبطاح والألوف من المسلمين يسوقهم الجزارون إلى الذبح دون هوادة؟! أم كيف تغمض للمسلم عين . . واغتصاب الأرض . . وانتهاك الأعراض . . والعدوان الآثم قائم على أمته صباح مساء؟!

أم كيف يذوق طعم العطف والحنان، وملايين أطفال المسلمين في العراء؟! إنها أمانة، والله سائلنا عنها يوم القيامة، فلنكن عند حدودها لئلا تعقبنا حسرة وندامة . ألا إنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ .

ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه[1]

مهلاً رويدك أيها الحادي!! فنحن الذين بأمتنا أشرق التاريخ، وبكتابنا عرفت الإنسانية معنى وجودها.. وعلى هدي مبادئنا لمَّت الحضارة شعثها وشقت طريقها من جديد.

ولكن.. إذا مر بنا التاريخ من جديد فلسوف يعجب أن يرى من بقايا الطلول أن الدهر قد قلب لنا ظهر المجن.. فانقطع ما بيننا وبين أولئك الذين أشرق بهم ذلك التاريخ وسعدت بهم الإنسانية.. وقامت على مبادئهم حضارات، ولسوف يراجع نفسه مرات ومرات.. أصحيح أن هؤلاء الذين يلهو بهم الزمن اليوم هم أحفاد عمر وخالد ونور الدين وصلاح الدين؟! أتراهم على نسب صحيح لأولئك الذين مادت الأرض تحت سنابك خيولهم في بدر والقادسية.. وعلموا الدنيا معنى حماية الحق والإيمان في اليرموك وحطين وعين جالوت؟!

أصحيح أن الذين كانوا على النبع السلسبيل يسقون الواردين عبر القرون يقفون اليوم بهلع يسألون ويستجدون!!

أصحيح أن الأمة التي كانت على خط الريادة، قافلة تحمل الراية، وقيادة توجه الركب، وقلوباً تحرس الخلق، وعقولاً تبني حضارة السعادة والخير.. أصحيح أن هذه الأمة أخنى عليها الدهر فأصبحت لا حول لها ولا طول..

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العددان السابع والثامن، السنة الثانية عشرة، رمضان وشوال ١٣٩١هـ، كانون الثاني ١٩٧٢م.

مستباحة الحمى، مهدرة الحقوق، يعبث بمقدراتها سفهاء العالم فيما يسمونه هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن انعكاساً للحقد العفن في أدمغة يهود، ومن هم على هوى يهود!!

ولقد ينتهي العجب إذا ملكنا شجاعة القول بأن الرزية التي تضرب بكلكلها على هذه الأمة ـ وهي رزية ذات وجوه وألوان وعناوين ـ ليس أقلَّ وجوهها ضراوة تلك الغفلة القاتلة التي تنسي الغالبية العظمى من بني جلدتنا معنى نسبتهم إلى (الإسلام)، وطبيعة الرابطة التي تربطهم برسالته وحضارته بعيداً عن السطحية وضحالة الفكر والعمل، وأن مما يطرب له العدو ويسعى له من زمن ليس بالقصير أن يبلغ مراده في هذا النسيان أو التناسي من أبناء الأمة، بله المحاربة وإعلان العداء ممن مرجت عهودهم ولفحتهم مراهقة الفكر، وختم على قلوبهم بالتخنث الخارج على كيان الأمة، المتنكر لأصالتها ودورها الحضاري في خدمة الإنسان.

ولسوف نكون مع الحقيقة والواقع حين نقرر أن هذا الوجه من وجوه الرزية، كان باباً لكثير من الرزايا التي تعاني منها أمتنا حيث تجرجرها الأحداث في فتن كقطع الليل المظلم؛ كل واحدة منها تدع الحليم حيران.

فالإسلام ـ عهد الله إلى هذه الأمة، وموثقه الذي واثق به عباده ـ رسالةٌ حملها إليهم الصادق المصدوق محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، ومن قبل كان الميثاق الذي أخذه الله على النبيين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ

﴿لَمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ولقد تعاقدت الخناصر على البيعة الصادقة، وائتلفت القلوب على اتباع الرسول الكريم واتحدت، وأنشأ الكل يرمون عن قوس واحدة، لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم، وأماط عن حياتهم ما كان من التباغض والتحاقد، وأبدلهم تحاباً وتواداً، فهم يحبون في الله ويبغضون في الله، وتراهم أذلةً على المؤمنين أعزةً على الكافرين، وتأيدت الدعوة بصدقهم ووفائهم وجهادهم في مواجهة عدو لا يألو في النيل منهم، وإيقاع الأذى والفتنة بين صفوفهم ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي ظل هذا المفهوم الذي يجعل من الإيمان ـ مع التصديق والعمل ـ موثقاً وعهداً وبيعة، وضحت بنية الفرد المسلم، وجاء تكوينه انعكاساً صادقاً لمتطلبات الإيمان وصدق العهد، فدخل نطاق المسؤولية من أوسع أبوابه، وشعر بوجوده وذاتيته أصدق ما يكون الشعور، واعتز بدينه أقوى ما يكون الاعتزاز، ولبس لبوس الجد والإيجابية والبناء بعيداً عن اللهو والضياع، منقطعاً عن كل ما يضعف الفرد أو يكون طريقاً لتوهين كيان الأمة.

وللعهد مع الله سلطانه على القلوب، ولبيعة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هديرها في أعماق النفوس المؤمنة الخاشعة. صحيح أن طريق

الوفاء صعب المرتقى، ولكنه طريق الرجال الواثقين بفضل الله، المتمرسين في مخالطة الخلائق الإيمانية، المستعلين على صوارف العبث والهوان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. صحيح أيضاً أن الآية نزلت على سبب خاص معروف ولكن مدلولها في شأن البيعة والوفاء بالعهد الذي لا يحده زمان ولا أشخاص واضح لكل ذي عينين.

ولقد كان من مستلزمات ذلك كله ـ مع السمع والطاعة ـ إسلام الوجه لله تعالى، والتبرؤ من كل الأضداد والأنداد، وتجنيد القلوب والعقول للدعوة، ووضع كل الطاقات في ساحة الوفاء لعهد الله ودينه. واتسعت ميادين العمل الجاهد لصدق الموثق مع رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ. فإذا رأيت ثمَّ رأيت الحياة قطاراً يحمل أبناء الأمة إلى مرابع السعادة والخير، والمنعة التي تستعصي على عوادي الزمن، وهجِّيرى الواحد منهم ذكورهم وإناثهم العمل الدائب طاعة لله وابتغاءً لمرضاته.

والأمة المسلمة التي يسوقها إلى مرابع الخلد عقيدة وعهد: لن يكون ذلك أمراً على هامش حياتها، أو همهمات روحية مترفة لا تمت إلى الإسلام بصلة، أو عنواناً يوضع على فئة معينة كيما تعفي الأمة نفسها من مسؤولية العمل والجهاد. لا.. إن الأمة كلها صف على صعيد العمل في ظل إسلامها، وبوحي من شرعته منهاجه.. ولعل ذلك ما يفسر الكثير من الأسئلة التي حفلت بها آي القرآن الكريم «يسألونك.. يسألونك.. يسألونك» وما جاء من أمثال ذلك في حديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ دليلَ الحرص على أن

تضبط كل التحركات بمقاييسه، وأن تخضع كل التصرفات لأحكامه، كما يفسر الحرص على التسابق إلى ميادين الجهاد والموت في سبيل الله، كيما يكون السلوك صورة صادقة لمعتقدهم أن الله قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون.

ولقد كان القرآن للجماعة التي فقهت دين الله على أنه عهد وموثق: بالمرصاد، يدفعها صعداً على سلَّم المجد، وكل ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

وواحدة من هذه اللمحات القرآنية ـ وما أغزرها وأشملها ـ نجدها في شأن بعض من تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم «تبوك». تبوك... رحلة الإيمان المستعلي على كل المشقات والصعوبات، رحلة الغنى بطاعة الله ورسوله عن كل ملاذ الحياة ومغرياتها، رحلة الصبر الذي أملى على التاريخ سطوراً لا ينتهي مداها ولا يخبو نورها على الأيام.

ففي أعقاب الحديث عن الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفي، وما كان من صدق موقفهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وتميزهم عن المنافقين الذين تسلحوا بالكذب والمواربة: جاءت الدعوة العامة لكل مؤمن ومؤمنة بأن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين في إيمانهم من أهل السابقة فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾. ثم قال في شأن من تخلف من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ولم يكن لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ**

الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُـــولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إن أهل المدينة الذين حملوا عبء الدعوة مع إخوانهم المهاجرين والذين آووا رسول الله ونصروه، وكانوا بعد البيعة المثل الصادق للوفاء، والقاعدة الإيمانية الصلبة للدفاع عن حوزة الإسلام، وكذلك القبائل الضاربة حول المدينة ـ وقد أسلمت وصدق إسلامها ـ ليس من حق هؤلاء أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا أن يؤثروا الراحة فيرغبوا بأنفسهم عن نفسه، إذ لا ينبغي أن تكون أنفسهم أعز عليهم وأغلى من نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي كان دائماً في مقدمة الركب وفي مواجهة المخاطر ـ عليه الصلاة والسلام ـ. فحين يخرج في الحر أو البرد، مع اللأواء والضر وفي اليسر والعسر ليقود القافلة في مواجهة أعداء الدعوة، غير متململ تحت الأعباء، ولا متضجر من ثقل التكاليف.. لا ينبغي للرجال الذين أكرمهم الله بعهد الإسلام من أهل المدينة ومن حولها أن يقع منهم ما وقع، فيشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ راضياً مرضياً.

وإذا كان الأمر كذلك.. فإن عليهم أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين أهل السابقة الذين لم يتخلفوا، وكانوا في ساعة العسرة رجالاً أمناء،

مستعلين على كل الصعوبات؛ لم يتزعزع إيمانهم، ولا تحولت قلوبهم، وصدق فيهم أنهم ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه. وإنه لتأنيب أي تأنيب، فليس أوقع على النفس ولا أوجع على الضمير من أن يقال: إن صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رغب بنفسه عن نفس رسول الله.

ولقد جاء التعليل في أعقاب النهي عن التخلف.. تعليلاً واضحاً يرسم الطريق ويوضح المنهج، ففي كل حركة أجر، وفي كل نيل من العدو عمل صالح، مما يوسع ساحة العمل، و يفتح أبواب الجهاد، ويتيح لكل اختصاص في الأمة أن يأخذ مداه في حرب الأعداء.

وفي الظمأ مثوبة، وفي النصب مثوبة، وفي الجوع مثوبة، وفي كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء من الله تبارك وتعالى.. وكل نيل من العدو مهما كان شأنه يكتب الله لصاحبه العمل الصالح.. ذلكم هو الجهاد.. وذلكم هو كفاء ما يقدمه المجاهدون.. لقد شاء الله بفضله ورحمته أن يوسع لهم في العطاء على كل حركة وعلى كل عمل.. وعلى النفقة صغيرة كانت أو كبيرة.. بل على كل خطوة ولفتة وسبحان من لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أرأيت إلى هذا الذي ينبه عليه القرآن!! إن في هذه الواقعة ـ وما نزال بسببها ـ لإشارة إلى كل جيل من أجيال أمتنا هذه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أنه ليس من حق واحد ينتسب إلى هذه الأمة، وهو على طريق العهد والموثق أن يرغب بنفسه عن دعوة رسول الله، زاعماً أنه من أهل هذه

الدعوة، وعلى نسب متصل بمفهوماتها والخط الذي رسمه رجالها الأولون بدمائهم، وصاغوا لبناته من أشلائهم. إن الآيات في شأن التخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرغبة بالأنفس عن نفسه تأخذ مداها عبر القرون، لتضيء لنا نحن الطريق كما أضاءته لمن قبلنا، لتشعرنا بما نحن فيه من جفوة لدعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حتى كأننا نرغب بنفسنا عن نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

إلا أنها إشارة جديرة ـ إذا فتحنا لها القلوب ـ أن تغنينا بالعطاء فتضعنا على الطريق وفي إطار الوفاء للعهد والموثق، مما يوقظ غافلنا، ويذكي روح الحياة في أرضنا، فندرك معنى ارتباطنا بهذه الدعوة بعيداً عن الجفوة واللامبالاة، وأين يجب أن يكون اعتبارها في ميزان الحياة، وما هي ضوابط القرب والبعد منها، والصدق والكذب في الانتماء إليها.

وهذا الذي نقول كفيل ـ مع المنهج المدروس والتربية البناءة ـ أن يقفنا على اليابسة أمام التحديات.. إن تلكم الومضات الإيمانية التي يوقد مصباحها موثق الله الذي واثق به هذه الأمة: هي التي تضيء ظلام النفوس إذا جنَّ ليل الفتن، وتحرك كوامن القلوب إذا ادلهمت الخطوب، ولن تجد بديلاً لهذه الومضات مهما عملت على أن تجد البديل.

ولن ينفع الأمة إلا تذكر أنها بإيمانها بمحمد وبرسالة محمد هي على بيعة معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وللبيعة مستلزماتها وواجباتها وانعكاساتها، فليس الإيمان بالتمني، وليس الإيمان بعريض الدعاوى وفارغ القول، ولكنه

التزام الطريق، وصدق الاتجاه، وبذل ما يوجب الإسلام بذله ـ على أساس من التصديق ـ يوم تقف الأمة في وجه التحديات ويراد لها أن تقول كلمتها أمام الكوارث والنكبات.

وبعد فلنذكر دائماً أنه لم يكن أمراً عادياً أن يفصح القرآن عن رضا الله عن الذين بايعوا تحت الشجرة ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾. وأن يقول الرسول في أهل الحديبية [**أنتم اليوم خير أهل الأرض**] وأن يقول في شأن أهل بدر [**لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**].

أجل لم يكن ذلك أمراً عادياً، ولكنه بالغ الأهمية على طريق الصدق في المواطن، فرضا لله للذين بايعوا تحت الشجرة، والخيرية لأهل الحديبية، والمغفرة المتسعة الأبواب لأهل بدر.

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، ولله عاقبة الأمور.

إلا بما صلح به أولها(*)

هكذا تعمل السنون عملها في صياغة الخط البياني لهذه الأمة التي غفلت عن الله، واستبد بها الهوى، فأسلمها انحرافها عن نهج الكتاب وهدي النبوة إلى الضعف، حتى استنقذ أعداؤها الكثير مما كان في أيديها، وهان عليها أن تسام الخسف، وترضى بالاستجداء والاستخذاء، وكادت تقع في مهاوي الضياع.

ولكن الذي تقتضيه طبائع الأشياء: أن الأمة التي أكرمها الله برسالة جعلت منها خير أمة أخرجت للناس، لا بد أن تصبر نفسها على وعثاء الطريق من جديد، ولا بد أن تفتح أعينها لنور الهداية بعد أن تنفض غبار الظلام الذي أثقل الكواهل سنين وسنين، فالأمة صاحبة الرسالة قد تتعثر وقد تضعف ولكنها لا تموت، فكيف إذا كانت الرسالة خاتمة مطاف المرسلين، والمنهج الذي أكمل الله به الدين وأتم النعمة، وجعله عنوان القوة بعد الضعف، والعلم بعد الجهالة والوحدة بعد الشتات والضياع، وصيحة النذير لتجنيد طاقات العقول والقلوب والنفوس في سبيل حرية الإنسان وكرامته وإعداده إعداداً يأخذ بيده إلى مافيه سعادة الدارين، مصحوباً بالحس الجماعي والشعور بما يعود على الجماعة بالخير، بعيداً عن اللامبالاة، والعبودية للأنا والشهوة، كل ذلك على أساس من العقيدة الصحيحة،

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد التاسع والعاشر، السنة الثانية عشرة، ذو الحجة ١٣٩١هـ، آذار ١٩٧٢م.

والعبودية الخالصة لله عز وجل، وإطلاق العقل من إساره، وجعله أداة التفكير في آلاء الله وتدبّر ما جاء به الوحي، وما صح ثبوته عن الصادق الأمين محمد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، علماً بأن مضمونات ذلك تحولت إلى واقع حي يتحرك على وجه الأرض، حتى أنشأت نماذج يعزُّ وجود نظيرها في التاريخ.

وإن رسالة تزينها تلك الملامح الربانية المعطاء، والتي أشرنا إلى النزر اليسير منها، وكان من آثارها الحضاري المتميزة عبر القرون للإنسان ما كان.. إن رسالة هذه سماتها، وتلك ملامحها، جديرة ـ بما تحمل من عناصر القوة والإنسانية والحياة مع الواقعية والشمول ـ أن تحمل هذه الأمة إلى حيث تنهض من الكبوة، وتستيقظ بعد طول سبات، وهي أنضر ما تكون عوداً وأشد ما تكون مراساً، يضرب أبناؤها بسواعدهم المؤمنة أغلال الأيام، فيكسرون القيود، ويقتحمون السدود، وترتفع أصواتهم بآيات الله تشق عباب الظلام، فإذا بعد الظلام فجر ساطع متألق الضياء، تقرأ من خلاله على جباههم المؤمنة: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ..**﴾. ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾. «ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

ولكن المهم هو تخطي العقبة من جديد، وصياغة أول خطوة على درب العودة الصادقة الواعية إلى ذلك الذي صلح به أمر الأمة عندما أعلن النبي العربي الأمي ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ كلمة التوحيد، وقاد القافلة بأمانة

وحزم، وعلَّم رجالها كيف يحملون راية الإيمان، ويقودون ركب الإنسانية في ظل دعوة السماء.

وعلى هدي هذا الذي نقول: ترى أن عبثاً من العبث ما تحاول النظرات السطحية أن تشخِّص الداء ـ بعيداً عن المنطلقات الحقيقية للأمة ـ لتصف له الدواء. وفي حديد بارد يضرب أولئك الذين ينسون أو يتناسون حقيقة المرتكزات التي يجب أن تمس ترابها أقدامهم الأولى حين ينوحون ويتباكون على ما حل بالأمة منادين بالويل والثبور على القدر الذي أغرقها في بحران التخلف، وحملها إلى متاهات الفوضى والهوان.

لذا كان لزاماً أن تجند الطاقات في سبيل إعداد الفرد والجماعة من جديد على أساس من منطلقات تلك الرسالة التي بها كانت الأمة خير أمة أخرجت للناس، بعد أن نكون على قناعة بأن الاعتلال الذي يمرض جسم الأمة إنما كان من تخليها عن مواطن القوة التي رسمها القرآن، وجفوتها لمنهج الله تبارك وتعالى، ومن سننه الحكيمة أن الناس إذا غيَّروا من صلتهم بالله غيَّر الله ما بهم من الله. ولقد يكون هذا الكلام عاماً توضح تفصيلاته الدراسة المنهجية التفصيلية. ولكن الخطوة الأولى هي التسليم بالمبدأ، والاتفاق على الخطوط العامة في التصور والسلوك. والله يجزي الهدامين والمثبطين أسوأ الذي كانوا يعملون.

ولا أحسب أن زاعماً يزعم بأن الطريق معبدة سهلة، وأن الإشراف على الغاية هيّن ميسور؛ فلقد علمتنا التجارب ووقائع التاريخ أنها غاية بعيدة تتقطع دونها الأعناق، وتمتحن على صلابتها عزائم الرجال. خصوصاً إذا وضعنا في حسباننا ـ وهذا ما لا يصح تجاهله ـ ما يجدُّ من أسلحة العدو الماكر

الذي لا تقتصر حربه على ساحة دون أخرى، بل يحاول أن يكون له في كل واد أثر، وعلى كل صعيد كومة أذى، حتى بتنا ـ ونحن نراه يستخدم كل وسائل المعرفة ومعطيات الحضارة ـ أن نقول دائماً: وراء الأكمة ما وراءها: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

من هنا كان لزاماً أن يعمل من ولاهم الله أمر الريادة والقيادة، على تربية الشعور الصادق والحس الأصيل عند الفرد بمصلحة الجماعة، والقيم التي ابتنى عليها كيان الأمة، والغايات التي حركت عزائم أجدادنا الأولين، وطبيعة الراية التي قاتلوا تحتها يوم خرجوا من الصحراء، فأضاءت الدنيا بسيوفهم، واهتزت الأرض تحت سنابك خيولهم في ساحات الجهاد.

إن كثيراً من مظاهر التخلف تكمن في فقدان هذا الحس العام عند الفرد، ذلك الحس الذي يبدأ من شعوره بأنه على شيء في أمر العقيدة والمنهج، والنظام الذي يجب أن يحكم تصرفاته وسلوكه الفردي والاجتماعي.

وإن كثيراً من الصوارف عن القضية العامة ربما كانت نابعة من ذلك التصلب الفردي، والنظر بمنظار الأنا والمصلحة الذاتية الضيقة إلى الأمور وإلى جميع الوقائع والأحداث.

وعندما تتلون الأحكام ومقاييس القيم بهذه النظرة: فقد وقعت الكارثة، وحلت المصيبة، وبعُد ما بين الأمة وبين الطريق الصاعدة من جديد.

ذلك أن من آثار هذه النظرة أن تكون اهتمامات المرء اليومية اهتمامات لا تتسم بشيء من السمو، وإنما هي اهتمامات هابطة بعيدة عن مصلحة الأمة، ومصيرها الذي تتهدده الأنواء من هنا وهناك و [**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**].

وماذا أنت قائل في حال يصل إليها الفرد، يرى معها أنه ما دامت مصالحه اليومية مضمونة، وطريق الثراء الدنيوي مفتحة أبوابه، فعلى الأمة ومبادئها ودينها السلام. والأنكى من ذلك، أن تستعبده الشهوة، وما أكثر عناوينها وألوانها، فيستغني بها عن أمته ومبادئه، ويزكم أنفه عن كل رائحة عطرية تنبعث من ماضيه المشرق الذي كانت الأمة فيه ممسكة بزمام الإنسانية على وجه البسيطة.

إن ذلك امرؤ باع دينه بدنياه، وتلك هي الحماقة بعينها، ولكن أحمق الحمقى من باع دينه بدنيا غيره، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وهو المرجو سبحانه أن يعافينا من مسخ القلوب والعقول. لأن ساعة ينكشف الغطاء يوم القيامة ساعة عسيرة شديدة الهول، هنالك.. حيث يتبرأ المتبوع من التابع ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾.

هذا: والناظر في شيء من مصادر معرفتنا الأولى يجد أن الإسلام قد عني أيما عناية بتنمية ذلك الحس الذي نشير إليه، والجماعة الأولى التي عملت في تربيتها يد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصناع، كان أول ما تتسم به بعد الإيمان والإخلاص لله عز وجل، هذا الحس الذي يجعل اهتمامات الفرد بالغة السمو بحيث لا ينسى أنه واحد من الجماعة، وأن العقيدة التي يقاتل تحت رايتها تمثله، وهي عنوان وجوده وكرامته، فليست علاقته بها علاقة صناعية متكلفة، وإنما هي ذاته وكيانه؛ فالمؤمن يسمو ويسمو حتى يحب لله ويبغض لله.

وانظر أية أمجاد تنتظر الأمة التي يستعلي الفرد فيها على الأنا والتسيُّب والأغراض الشخصية القريبة، ليكون حتى حبه وبغضه لله عز وجل.. هذا عنوان.. وهو عنوان عظيم وعميق وشامل بآن واحد معاً. وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء؛ لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار**]. ولعل في هذا بعضاً من البيان لما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ وما أجمله بياناً.

ولقد بلغ استمساك المسلم بهذه العروة الوثقى حداً رأينا معه امرأة يقتل ثلاثة من أقرب الناس إليها في «أُحد»؛ زوجها وولدها وأخوها وهي تقول ـ وقد خرجت هائمة على وجهها بعد أن بلغها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قتل: ماذا فعل رسول الله؟ حتى إذا رأته حياً ثابتاً يقود المعركة، يجمع الشتات ويلوذ به الأبطال، قالت: كل شيء بعدك جلل يا رسول الله.

والجلل هنا: الهَيِّن الحقير.

ومن هنا كان من صفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن كان خير قدوة في كل أمر يتعلق بشخصه الكريم عفواً وسماحةً وصفحاً عن الأذى، فإذا انتهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شيء حتى يعود الأمر إلى نصابه.

ولقد أخذ هذا الحس مجراه في طريق الأمة حاكمها ومحكومها، وأصبح الصعود متناسباً مع ازدياده ونموه، والهبوط والتخاذل في تناسب مع ضعفه أو فقدانه عند البعض من الحاكمين أو الرعية. وعمر بن عبدالعزيز واحد من تلك النماذج التي أضاءت جنبات التاريخ في ظل ذلك الهدي النبوي الكريم، حيث انعكس هذا الشعور على مصالح الأمة فكان هذا الخليفة العظيم مثالاً يحتذى في مخافة الله والرفق بالأمة.

قالت زوجته فاطمة: «دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضعاً خده على يده ودموعه تسيل على خديه، فقلت: ما لك؟ فقال: ويحك يا فاطمة، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، ففكرت في الفقير والجائع، والمريض والضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت».

واليوم . . لقد كان حسناً ما تناقلته الأخبار من أن ذوي الجنود الباكستانيين الذين ما يزالون أسرى في الهند والذين يبلغون ثمانين ألفاً أو يزيدون . . لقد كان حسناً وعظيماً أن ذوي هؤلاء الجنود أوضحوا للمسؤولين بجلاء أنهم لا يريدون أن تكون عودة أبنائهم إلى الوطن من الأسر سبباً في مساومات أو تنازلات وتساهلات على حساب مصلحة البلاد العليا، وما يهم الأمة في وحدتها وكيانها.

إنه لحسن عظيم بعيد عن الأنانية والعواطف القريبة: يدل على أن العقيدة لابد أن تعمل عملها، وأن روح هذه الأمة ـ إن شاء الله ـ ما تزال في عنفوانها وقوتها رغم الزلازل والأعاصير. وأن هزيمة في ساحة القتال تعاونت عليها أسباب داخلية وخارجية، لا تعني اندثار أصالة الأمة، ونضوب ينابيع الحياة فيها، وأن ارتباطها بمرتكزات القوة المستمدة من عقيدتها وتاريخها قد أصبحت في مهب الريح.

إنه لخبر يستوقف الدارس لهذه الحقبة من حياة الأمة، ويحمل الباحث على أن يقرأ ما بين السطور، وأن يستشف ما وراء الكلمات. . وما كان ربك نسيّاً.

ولن نكون متكلفين لما نريد، إذا قلنا: إن هذا الموقف يشعرنا بمزيد من أهمية ما قلناه في صدر هذا الكلام، وأن الشعور العام يمكن أن يتناهى بصاحبه حتى يرتفع به فوق دواعي العاطفة، واهتمامات التراب. . وما أكثر ما يقدمه الإسلام كل يوم من الأدلة على أنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وكم نكون جادين مخلصين لهذه الأمة حين نعرض عن أولئك الناعقين من أشباه الرجال الذين ترهبهم عظائم الأمور، فينادون بمحقراتها، وتضعف نفوسهم عن حمل العبء فلا يجدون إلا أن يتهموا الرجال بما يحلو لهم من الهوى، فرحين باللهو والعافية من الالتزام والعمل، فرح الوليد بالدمية يعبث بها أو تعبث به ساعة من نهار.

وملء السمع والبصر أولئك الذي يحملهم إيمانهم على أن يقتحموا العقبات رجالاً، ويلتزموا أبطالاً ـ وهم يقتحمون الصعاب ـ ما لا يعمله إلا الرجال. أما الذين يزغردون لقالة السوء على الإسلام، والذين أصبحوا شيئاً عندما استنوق الجمل: فهم مرضى المعرفة، والقلوب. وللحق سلطان لابد أنه مستعل فيه ومدركه مهما طال الأمد واشتد ديجور الظلام. ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**﴾. وليذكر أولئك الذين أولاهم الله أمانة الريادة في دعوته أنهم ـ بحمد الله ـ على هدى من ربهم، وهذا أعظم المنَّة والفضل، فليكونوا على مستوى أمانة تلك الدعوة ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

وليذكروا أيضاً أن التمحيص كائن لا محالة ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾.

اللهم إنا نسألك إيماناً يباشر قلوبنا، ويقينا صادقاً حتى نعلم أنه لن يصيبنا إلاما كتبت لنا، والرضا بما قضيت يا جبار الأرض والسماوات.

ونسألك يا من بيده نواصي العباد ـ ونحن نودع هذا العام من عمر المجلة المبارك إن شاء الله ـ عزيمة الرشد والثبات في الأمر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، وأن تأخذ بأيدينا فلا نهُن ولا نحزن، وأن توفقنا إلى ما فيه مرضاتك والنصح لعبادك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله عليه وسلم وبارك على الرحمة المهداة معلم الناس الخير، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الأبرار المجاهدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

obeikandl.com